مجلة القنطار للعلوم الانسانية والتطبيقة

سلسلة الآداب والدراسات اللغوية المعاصرة

بلاغة الفقد في كتابة الموت (بارت الفيلسوف طفل وديع يبكي أمه)

الاستاذ الدكتور: فتيحة كحلوش

جامعة سطيف 2 / الجزائر

تاريخ التقديم 2025/4/15، تاريخ القبول 2025/5/10 ، تاريخ النشر 2025/5/30

الملخص: تتناول هذه الدراسة تجربة "كتابة الموت" عند الفيلسوف الفرنسي رولان بارت، من خلال تحليل كتابيه "الغرفة المضيئة" و"يوميات الحداد"، اللذين يعكسان تجربته الشخصية العميقة مع فقدان والدته، تنطلق الدراسة من فرضية أن كتابة الموت تتجاوز النقد المنهجي لتصبح تجربة ذاتية يمتزج فيها الفلسفي بالأدبي والعاطفي، وتستعرض الدراسة كيف تحولت علاقة بارت بالموت من معرفة نظرية إلى تجربة شخصية، وكيف تجسدت "بلاغة الفقد" في محاولاته اليائسة لاستعادة الأم عبر الصورة الفوتوغرافية، والأحلام، والذاكرة المكانية. وتخلص الدراسة إلى أن بارت، عبر هذه الكتابة "اللاأجناسية"، لم ينجح فقط في "استئناس" الموت وتجاوز عصاب الفقد، بل حوّل الحزن إلى عمل إبداعي خالص، مقدمًا للأم "آخر هبة" تتمثل في الخلود عبر النص، ومُظهرًا وجه الفيلسوف كطفل وديع يبكي أمه.

الكلمات المفتاحية: رولان بارت، كتابة الموت، بلاغة الفقد، الغرفة المضيئة، يوميات الحداد، الصورة الفوتوغرافية، الذاكرة، الفلسفة والتجربة الذاتية.

Abstract : This research examines the experience of "writing death" in the work of French philosopher Roland Barthes, through an analysis of his books "Camera Lucida" and "Mourning Diary," which reflect his profound personal experience with the loss of his mother. The study posits that writing about death transcends methodological criticism to become a subjective experience where the philosophical, literary, and emotional intertwine. The paper explores how Barthes's relationship with death transformed from theoretical knowledge to a personal experience, and how the "rhetoric of loss" manifested in his desperate attempts to reclaim his mother through photography, dreams, and spatial memory. The research concludes that Barthes, through this "agenreic" writing, not only "tamed" death and overcame the neurosis of loss but also transformed grief into a pure act of creation, offering his mother a "final gift" of immortality through the text, and revealing the philosopher's face as a gentle child mourning his mother.

Keywords:
Roland Barthes, Writing Death, Rhetoric of Loss, Camera Lucida, Mourning Diary, Photography, Memory, Philosophy and Subjective Experience.

5/30/2025

1. المقدمة: كتابة الموت بين الفجيعة والترميم

رافقتْ كتابة الموت في كل الثقافات التعبير الإنساني منذ النصوص الأولى، فقد وقف الإنسان دائما مفجوعا أمام هذا الحدث، مفزوعا أمام المسند الذي يعيد عبره سرد فاجعة الموت، وما يضخم فزع الذات هو كون "الموت شيئا مستترا مثيرا للحيرة والخوف لأنه الشيء الإنساني الوحيد الذي لا نملك شهادات عنه" [1] فإذا كنا نعيش مرات عدة وحيوات متتالية، وستتجدد الحياة حتى بعد الموت بالنسبة للمؤمنين بالبعث ، فإننا نموت مرة واحدة فقط وهو أمر لا نختلف فيه إلا إذا أردنا أن "نفلسف" المسألة مع بعض المفكرين الذين يرون "أن الحياة ما هي إلا الموت نفسه، لأن الإنسان يشرع في الموت بمجرد أن يولد، وهذه الفترة المحدودة التي يحياها هي المدة التي تستغرقها عملية وفاته"[2]

وعلى العموم فكتابة الموت كانت في الغالب تأريخا للغربة في المكان والوجود، إذ يتحول الكاتب من رثاء الراحلين عن المكان إلى أدب المكان نفسه حيث الغرف والزوايا، الشرف والساحات، الحدائق والممرات تهجر جغرافيتَها الاعتيادية (التي كانت-بفعل قهر العادة- قد خلت تدريجيا من المعنى) وتنتصب علامات سيميائية ذات ذاكرة كثيفة "العدوانية" لا تومئ إلا بالفقد: هنا كان يجلس فلان(المفقود)، هنا كان يتناول قهوته، هنا كان يقرأ جريدته، وهنا كان يموت...لكنه لم يعد هنا. وهذه العبارة الأخيرة (لم يعد هنا) ستكون كفيلة بشحذ هاجس السرد عند الذي بقي "هنا" وحيدا وعاريا إلا من لغته التي ستضمد قليلا نزيف الفقد وستستر عراء الروح، ليتأسس بعدها ما أسميه في هذا السياق نص"تهدئة الروع"، نص المصالحة مع الموت والتآلف مع حالة الفقد في معادلة تظل أبدا قاسية: المزيد من الموت يعادل مزيدا من نصوص الألم ...

سأتناول بالقراءة في صفحاتي هذه خطاب الموت عند رولان بارت Roland Barthes،هذا الفيلسوف الذي تجاوز موضوعات النقد الأدبي المحدّدة إلى تتبع سيميائيات الحياة من حوله، بل سأتناول تَجَاوُزَه تلك الحقول أيضا إلى مجال كتابة "ذاته" في علاقتها بطوارئ الحياة ومتغيّراتها حيث تنمو تيماتٌ أخرى "واقعية" و"شخصية" تستحوذ على قلم بارت فيُنتج كتابة "لا أجناسية" يتناغم فيها الفلسفي والأدبي، العقلاني والعاطفي، اليومي الواقعي والمجازي المثير للخيال. ولعل تيمة الموت في هذا السياق كانت الأكثر إثارة عنده(أو عندي بوصفي ذاتا للفقد/الموت المتعاقب). لقد استغرق بارت في تنصيص الموت على نحوين مختلفين في الأسلوب متفقين في الغاية التي تؤول به في النهاية إلى التمركز داخل جبة الحداد حيث ينمو "استئناس جوهري وجديد للموت، لأنه من قبل لم يكن سوى معرفة مستعارة (مرتبكة مستقاة من الآخرين، ومن الفلسفة..إلخ) ولكنه الآن تجربتُه الشخصية "[3].وهذا الاستئناس سيمنحه فرصة عيش أمه مجددا بعد أن سحبها الموت منه. فقد تناولها عبر كتابه"الغرفة المضيئة" الذي هو قراءة ثقافية في سيميولوجيا الصورة الفوتوغرافية حيث الصورة

---

[1]--https://24.ae/article/117393/20 (أحمد ضيف 20كاتبا أمريكيا لاتينيا يعيدون كتابة الموت)

[2]- أمل مبروك، فلسفة الموت دراسة تحليلية، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان،2011، ص08

[3]-رولان بارت:يوميات الحداد (نص وضعته وفسرته ناتالي ليجير)، ترجمة إيناس صادق،المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر2018،ص41

دال في لعبة دلالية واسعة، كثيفة، وقاسية أحيانا عليه وعلى القارئ، كما تناولها في "يوميات الحداد" وهو تدوينات يومية تحقق لونا من ألوان الكتابة السيرية التي " تؤدي إلى التقريب بين ماضي الذكرى وحاضر الكتابة أو إلى المجابهة بينهما. فينشأ عن ذلك تداخل مشوَّه مشوَّش و إن اتصف بشيء من البساطة"[4] ولعل ذلك التشويش يعكس ارتباك الفيلسوف أمام حالة الفقد بعد أن يصير مجبرا على العيش من غير الأم ويعوّض عن ذلك الإجبار باستعادة بعض "تاريخه" معها عبر يوميات يتيمة خالية من الأفراح الصغيرة التي جمعت الراوي بأمه لكنها تُجسد بلاغة الفقد حيث تنزاح الكتابة عن الاكتفاء بالتعبير عن مشاعر فقد الأم إلى مسألة عيش الأم من جديد Revivre maman .

2. وقبل الاسترسال في تأمل مسألة الموت في كتابات بارت أود الإشارة إلى بعض الملاحظات المتعلقة بموضوع الموت في الخطابات الأدبية :

- أعتقد أن كتاباتِنا عن كتابة الموت لن تكون أبدا نقدية بالمعنى المنهجي للنقد، لن تكون أبدا محايدة بالمعنى الموضوعي للبحث العلمي، لن تكون "علما" رغم أننا في مقام غايته العلمية... كيف لها أن تكونَ كذلك وكل واحد مِنّا له رصيدٌ كثيفٌ من الموت: الموت المجازي والموت الحقيقي؟ كيف لها أن تكون كذلك وقد عشنا ما يكفي من الموت ليجعلنا نفكرُ به كل حين في إيقاع لا يتحرك نحو موتى الماضي فقط بل نحو موتى المستقبل بما فيهم موت الذّات... لا يمكننا في الواقع أن نقرأ نقديا نصا عن الموت من خارج تجربتنا مع الموت وهي تجربة تختلف حتما من شخص إلى آخر،وفي هذا المستوى نحن لا نحلل خطابا بل نعيش تجربةً ، وأعتقد أن هذا ما يعطي لمثل هذه الموضوعات قوتها وطابعها الإنساني المميز.
- الملاحظة الثانية التي أسوقها في هذا المقام ملاحظة غريبة نوعا ما. لقد قرأت بارت منذ أيام التتلمذ الأولى، وتابعت تقلباتِه الفكرية والمنهجية بعناية كبيرة وفجأة ملأني الإحساس-وأنا أقرأ يوميات الحداد- بأن هذا أجمل كتاب كتبه بارت على الرغم من أنه لم يكن أصلا كتابا...وإذ أورد هذه الملاحظة أتساءل مع القارئ: هل يبتعد الإنسان -مع تقدمه في العمر- عن النظريات والمناهج شيئا فشيئا ليقترب من النصوص التي تلامس كيانَه الروحي ؟ وبمعنى آخر هل ينأى الباحث-مع تقدمه في العم- عن عالم "الموضوع" شيئا فشيئا ليعانق "الذّات" تصالحا معها واحتواءً لهشاشتها اللّامتناهية؟ وهل هذا يعني أن "المؤلف يمكن أن ينجح في إثارة القارئ، و إن لم يكن كشاتوبريان من أمراء البيان. فكأن نوعية انفعال في تيمة الموت بالذات المؤلف أعظم شأنا من نوعية أسلوبه "[5]
- الملاحظة الثالثة مرتبطة بموت رولان بارت نفسِه. من المفارقات أن "يوميات الحداد" كان آخرَ أحلامه المحمومة بكتابٍ. فقد كان رولان بارت فيما يبدو يُدون يومياته مع الحزن والفقد بشكل تلقائي هادفا إلى تقييد مشاعره حول رحيل أمه خوفا من أن يسرقَها(المشاعر) منه الموت أو تسرقُه منها الحياة، آملا بالعودة إليها لاحقا في عمل/كتاب من أجل أمه، وهو ما لم يحصل لأن الموت لم يمهله طويلا بعد وفاة والدته، بل كأن الحياة لم تعد ترغب بمصاحبته هو الذي خانها

[4]-جورج ماي،السيرة الذاتية، تعريب محمد القاضي، عبد الله صولة، دار رؤية للنشر والتوزيع،القاهرة ،مصر ، 2017، ص122

[5]- جورج ماي، السيرة الذاتية، ص162

بالعيش لسنتين على إيقاع الموت فردّت الخيانة سريعا ولم تسعفْه لتحرير كتاب الأم كما كان يحلم به. بقيت اليوميات بطاقاتُ نشرت بعد وفاته. لم يكن بارت يعلم، وهو يخط بطاقات الحداد يوميا ولسنتين أنه كان يكتب موتَ أمه وموتَ الكتابة وموتَه هو. لقد بدأ بالعيش في الموت مذ ماتت أمُّه -(أمُّه أم أمَّه؟ اللفظة في فضاء الموت هذا يجب أن تتحول مفعولا به غصبا عن النحو المقدس، ما من أم تخون أطفالها الصغار والكبار وتقوم بفعل الموت!!) – وقد كانت الفترة الفاصلة بين رحيل الأم ورحيل بارت جسرا ممدودا يلغي ثنائية الحياة والموت.

تنبني قراءتي ل"بلاغة الفقد في كتابة الموت" على عدة موضوعات عنونتها كالآتي: (الصورة الفوتوغرافية ووهم الامتلاك، الفقيد في الحلم: هبةٌ هاربةٌ، خيانة الحياة حبا بمن ماتوا، الرحلة في المكان ليست خلاصا من الموت، الأيام تكرر استظهار الفقيد غير آبهة بالفاقد).

3. الصورة الفوتوغر افية ووهم الامتلاك :

تتموقع علاقة رولان بارت بأمه - وعلى خلاف ألبير كامي – في فضاء خاص،حتى لكأنه اختصر الأنثى فقط في الأم ، هو الذي لا يريد " اختزال أمِّه إلى الأم "[6] بما هي تمثيل ديني ، هو الذي بدا أيضا مرتاحا لانتمائه إلى ثقافة دينية تجاوزت "صرامة القانون لصالح المتخَيل"[7] عندما سمحت بتمثيل صورة الأم. لقد قلّص بارت امتدادات الوجود إلى حضور الأم الاستثنائي فراح يستعيدها في "الغرفة المضيئة" ويحاور عبر ذلك الاسترجاع "بداهة الفوتوغرافيا ليس من وجهة نظرِالمتعة ولكن في علاقتها بما أسماه رومانسيا الحب والموت"[8] كما حاول استعادتَها عبر تدوينات الفقد في "يوميات الحداد" حيث يتحسس معه القارئ الذي فقد أمه –بشكل خاص -مذاق المرارة التي تنهمر كسيل لا يتوقف.

يمزج بارت في "الغرفة المضيئة" بين حس الناقد-الفيلسوف و بين لغة الإبداع في عيش تجربة صورة أمه بعد الموت ، متظللا بمارسيل بروست وبول فاليري وفرويد وغيرهم ممن تعاطوا مع موضوع الأم-الموت -الصورة، محققا لعبة تناسل النصوص في الخطاب النقدي، التي كانت تقريبا حكرا على الإبداع، يقول : " مهما حاولت مراجعة تلك الصور، لن أتمكن إطلاقا من استحضار ملامحها (استدعائها جميعا أمامي). لا،ما أردته -مثلما أراد فاليري بعد موت أمه- هو "كتابة نص صغير عنها لنفسي فقط "[9] نعم إنها رغبة ما بعد الموت بالنسبة للكاتب أو الفيلسوف، رغبة الكتابة عن الغائب الذي اختفى في ظلام ما مخلفا وراءه ساعات الوجود خالية من الزمن (خالية من التاريخ). الكتابة هنا منعرج ضروري بقدر ما هو خطير: إنها ترميم لذات الحضور المترامية الألم ،اختصار للغياب، وتقليص لمساحات الشوق المدجج بالكمد، حيث

[6]-رولان بارت: الغرفة المضيئة تأملات في الفوتوغرافيا،ترجمة هالة نمر، مراجعة أنور مغيث، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، ط1، 2010،ص70

[7]–نفسه، الصفحة نفسها.

[8]–المرجع السابق، ص69 .

[9]–نفسه، ص 60.

فقدان الأم هو فقدان مكان العيش، ولكن الكتابة في هذا السياق هي في الوقت ذاته انكفاء لا شعوري على لحظة الفقد المرفوضة، وبحث عن حياة مستحيلة تنبثق من قلب الموت في أحلام الكاتب التي انفرط عقدها.

يتأمل بارت صور أمه، هو الذي تساءل في "بلاغة الصورة" عن إمكانية التمثيل التناظري (في الصورة) في أن ينتج أنظمة حقيقية للإشارات ولا يبقى مجرد تراص بسيط للرموز؟ ثم انحاز إلى الشق الأول من تساؤله مقرا أن الصورة تملك خطابا قابلا للإيحاء * ووفقا لهذا يتحول إلى قارئ مؤول لصور أمه، لكنه ينحرف عن هذا المسعى، مسعى سيميائية الصورة ليحقق خطاب بلاغة الفقد كما أحببنا نعته. إنه لا يستطيع استعادة أمه عبر صورتها، لقد صارت تنتمي إلى "لغة الصمت"[10] وبارت يتلعثم أمامها "ومن المؤكد أن حيرة المتلعثم لا تكمن في أنه لا يكون لديه شيء ما ليقوله. فهو بخلاف ذلك يريد أن يقول الكثير جدا في نفس الوقت، ولا يكون قادرا على أن يجد الكلمات التي يعبر بها عن الثروة الضاغطة من الأشياء التي تدور بذهنه"[11] هناك شيء ما ضائع تحت سطوة الموت وسلطانه ، ذلك الشيء الضائع يُضيع سهولة "التماهي" مع الصورة ويعيد الذات إلى وحشة الغياب " و هكذا يبدأ السؤال الجوهري في طرح نفسه: هل تعرفتُ عليها؟ وفقا لهذه الصور تعرفت أحيانا على مقاطع من وجهها ، على علاقة ما بين أنفها وجبهتها، على حركة أذرعها ويديها. لم أدركها أبدا سوى أجزاء، بما يعني أنني افتقدت وجودها، ومن ثم افتقدتها بأسرها. لم تكن هي، ولم تكن أيضا شخصا آخر" [12] إن الصور الماثلة أمام العين تحيل إلى الأم، فهي ليست شخصا آخر غريبا، لكنها تتلاحق مجزأة فتؤكد أن المرأة " الكاملة" التي كانت أمًّا ما عادت هنا. ماذا لو كان بارت يتأمل الصور في وجود أمه أو حتى في غيابها وهي موجودة بهذا العالم؟ حتما ما كان لمثل هذه المشاعر أن تتأسس. كأن صور الحي تنطوي على الروح، أما الأموات فيسحبون أرواحهم من صورهم ويأخذونها معهم بعيدا.تظل صورُهم باردةً تحيل فقط على زمن الماقبل. وتبعا لذلك يظهر متأمل تلك الصور وكأنه يتعرف من جديد إلى الشخص موضوع الصورة ويعرفه على نحو مغاير" لقد تعرفت عليها وسط آلاف من النساء الأخريات، ومع ذلك لم "أجدها"، تعرفت عليها معرفة مغايرة وليست جوهرية " [13] يصرّ بارت على "ضياع" أمه منه رغم أنه يتصفح صورها الفوتوغرافية،ومع أن الصورة الفوتوغرافية هي من أهم وسائل الاحتفاظ "بوجود" شخص ما إلا أن بارت لم "يجدها" لم يجد "أمه": لقد ماتت ببساطة ولن تعوض صور الشخصِ المحبوب عنه أبدا و لو لبرهة. كل محاولة لبعث الحياة عبر الصورة -في هذا المقام- هي محاولة يائسة إن لم نقل غبية. تغدو الصور والحال هذه ذاكرة فارغة من الذكرى، بل أكثر من هذا تتحول إلى مؤرخ مأساوي يُكثّف الألم فقط " فالقول أمام بعض الصور " بأنها تقريبا هي!" هو أكثر تمزيقا لي من القول أمام صور أخرى "

---

* Voir Roland Barthes, Rhétorique de l'image, Communications,Année 1964,n4, p40.

[10]-هانز جيورج غادامير، تجلي الجميل،تحريرروبرت بيرناسكوني،ترجمة و دراسة وشرح سعيد توفيق ،المجلس الأعلى للثقافة 1997 ص189

[11]–المرجع السابق، ص189-190

[12]-رولان بارت، الغرفة المضيئة، ص62

[13]– المرجع السابق، ص62.

ليست هي على الإطلاق". **"تقريبا"** هذه، هي نظام للحب المروّع" [14] كلما كانت الصورة أكثر دقة كلما تجلى غياب الروح فيها مما يكثف مشاعر الفقد والحزن،وكأن الأمر يعادل فكرة : إنها تقريبا "حية" بعد لحظات من الموت، ومع ذلك فهي ميتة ولن تعود أبدا حية. لقد تحوّل بارت إذن من سيميائية الأشياء(الصورة) إلى سيميائية الأهواء إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الهوى هو ما " ما يترتب عن انشطار الذات لحظة اصطدامها بالعالم "[15] لقد عاش بارت-بموت أمه- لحظة انشطار فريدة من نوعها فأطلق العنان لفعل التماهي مع موضوع الحب والموت ، حب الأم حتى الموت وحب الموت حتى اللحاق بالأم ، فلم يتعرف القارئ إلى والدة بارت إلا من خلال مشاهد الفقد. لم يستطع قراءة صور أمه في سياقها الواقعي(الزمن الذي أُخذت فيه) بل قرأها على إيقاع زمن الحداد حيث بدا بدوره منسحبا من الحياة وفاقدا للرغبة في الوجود حيا مادام فقد أكبر سبب للبقاء "بالفعل في أعماق الشيء نفسه كما لو كنت كالميت. ماذا سأفقد الآن بعد أن فقدت سبب وجودي-السبب الذي يجعلني أخاف على أحد"[16] وهذا الأحد كان أمه بالذات، فهو إذ يتأخر خارج المنزل يخاف أن تقلق عليه فيتصل مطمئنا، وإذ يسافر يخاف أن تشتاقه فيعود سريعا، وإذ تمرض يخاف أن تموت فيلغي انشغالاته ليبقى بقربها يرعاها، و بهذا كان وجودها هو السبب الأكثر وجاهة لوجوده.

4. الفقيد في الحلم: هبةٌ هاربةٌ:

إن مجهود بارت المبذول في محاولة معايشة لحظات الحياة مع الأم سيغدو مجهودا سيزيفيا بامتياز بالنسبة له وبالنسبة لكل من عاش تجربة الفقد هذه وراح دون شعور منه يمارس الرغبة في استعادةٍ مستحيلة تتكئ على الصورة - أو على مقاطع الفيديو التي أتاحتها التكنولوجيا اليوم- أو حتى على الحلم الذي تتكرم به الليالي ويمثل فرصة أخرى للحياة مع الميت المحبوب وهذه حالة بارت، فمع أن "مخزون أدواره كحالم"* ضئيل جدا فهو لا يحلم إلا بأمه إلا أنها تضيع منه فلا يجدها كما هي أو كما يرغب، يقول:"ولأنني غالبا ما أحلم بها (لا أحلم إلا بها)، لكنها لا تكون بالضبط أمي: أحيانا تتسم في الحلم، بشيء ما في غير محله، بشيء من المغالاة، تبدو مرحة، أو وقحة –حيث لم يكن ذلك حالُها على الإطلاق-أو حين أعرف أنها هي، ولكن لا أرى ملامحها (ولكن هل نحن نرى في الأحلام أو نعرف؟) أحلم عنها ولا أحلم بها. هو نفس المجهود،

---

[14]-نفسه، ص62.

[15]-ألجيرداس .ج.غريماس،جاك فونتنيي،سيميائيات الاهواء من حالات الأشياء إلى حالات النفس، ترجمة سعيد بنكراد، دار الكتاب الجديدة المتحدةط1 2010 بيروت لبنان ص31.

[16]--رولان بارت، يوميات الحداد، ص37.

*-يرتبط الحلم برغباتنا الباطنية فكل ما يعنينا عميقا يتمظهر عبره "إننا نحلم بكل شيء شخصي له علاقة مباشرة بنا و نتصل به وجدانيا ونحلم بصراعاتنا اليومية الظاهرة أو الخفية التي نعيها أو لا نعيها و تعمل عملها فينا لا شعوريا"عبد المنعم الحفني،التحليل النفسي للأحلام، دار نوبليس، بيروت ، لبنان ط1، 2005،ص107

أمام الصورة كما في الحلم ، نفس الجهد السيزيفي ،الصعود مشدودا نحو الجوهر ، الهبوط ثانية دون تأمله، والبدء من جديد"[17] لا يتيح الحلم لرولان بارت عيش أمه (أو العيش معها) مجددا بصورتها و سلوكها المعهودين، و رغم ظهورها مرحة فهذا يزيد من ألم الفقد لأنها لم تكن كذلك والطفل الحزين يبحث عنها في حلمه كما كانت في واقعه، يريد الحلم "بها" وليس "عنها" . الحلم بها يتيح القبض عليها والتواجد معها أما الحلم عنها فارتباك وضياع لها وللحلم الذي أعطى أملا كاذبا.

واضح هنا المجهود الذي يبذله بارت -وكل فاقد لميّته-بعد الحلم به: فور الاستيقاظ يسرع ذهن المرء إلى لفّ الحلم ومحاولة النفاذ إلى عمقه استرجاعا لحقيقة ما و"حياة" ما، وحرصا على رسالة ثمينة تتطلب قراءتها أن يشرئب البصر وتتوثب النفس ويتماهى العقل مع حروفها،ورغم هذا المجهود في البحث عن الجوهر يضيع هذا الجوهر في النهاية وتضيع سعادة الحالم في أنه امتلك ولو لثوانٍ فقيده. وهذا الوضع في التمسك بحلم الفقيد/ المحلوم به هو وضع أسطوري بامتياز لا يختلف عن وضع سيزيف الذي حُكم عليه –بسبب تحايله على الموت- بالأبدية الضنكة. فأي مجهود شاقّ يمارسه بارت أمام الصورة وأمام الحلم وأمام الموت من خلالهما؟ يقول:"ما فقدته ليس صورة (الأم) ولكن كينونة. وليست كينونة ولكن كيفية(روحا): ليس ما لا يمكن الاستغناءُ عنه ولكن ما لا يمكن تعويضُه"[18] إن الأمر إذن لا يتعلق بغياب الملامح الحقيقية لشخص في صورة فوتوغرافية- وهو أمر يحدث كثيرا حتى بالنسبة لصور الأحياء- كما لا يتعلق بحلم يُمنّي بارت ثم يخذِله في لحظة الوصول إلى أمه، لكنه يتعلق باستحالة التعويض عن"الروح" رغم وجود التمثيل الجسدي للفقيدة التي رحلت إلى عالم الخلود حيث يظهر بارت حبه لفكرة "الخلود" وتملصه من الفلسفة المادية حبا بأمه وحزنا عليها وحلما بلقياها " في قرية صغيرة بين الرباط وطنجة:"مولاي بوسلهام. رأيت طيور السنونو تطير في مساء الصيف.قلت لنفسي–وأنا أفكر بحزن شديد في ماما-أي تخلف في عدم الإيمان بالأرواح وبخلود الأرواح! أي حقيقة غبية هذه المادية"[19] ومع هذا فحلم اللقاء مجددا غير كاف لتضميد جرح الفيلسوف فلا يبقى له سوى البكاء كطفل ضائع، موقن أنه لن يعثر على أمه ثانية. إن "البكاء هو تحلل اللغة ونفيها وهو يعبر عن إحساس الأحياء بالضياع "[20] أمام حدث الموت. سيكرر بارت في تدويناته في مواضع كثيرة عبارة "نوبة حزن.بكيت"[21] ولا يفوتنا في هذا السياق التذكير بأن تدويناته امتدت إلى عامين تقريبا(26أكتوبر 1977-15سبتمبر 1979)، لقد ظل بارت ضائعا طوال هذه المدة يبكي عندما تخونه الكتابة و يكتب عندما تهدأ دموعه.

5. خيانة الحياة حبا بمن ماتوا:

[17]--رولان بارت، الغرفة المضيئة، ص63

[18]–المصدر السابق، ص70-71

[19]–نفسه، ص56.

[20]--رجاء بن سلامة، الموت وطقوسه، رؤية للنشر والتوزيع،القاهرة، مصر،ط2،2009، ص211

[21]--رولان بارت، يوميات الحداد، ص48

يتحول خطاب الموت في "يوميات الحداد" إلى محكي مباشر لا يمتزج بأي موضوع آخر ولا تخالجه أية معرفة علمية أو نقدية. يستسلم بارت-دون قيد- للطفل الوديع الصغير الذي بداخله مصرحا منذ البداية " بكتابة هذه المذكرات منحت نفسي للبساطة التي بداخلي"[22] والبساطة هنا تعني الحقيقة العارية إلا من الصدق.لقد توارى بارت الكاتب/ الناقد/المفكر الذي أحدث جلبة في تاريخ الأفكار ليظهر بارت الآخر والأخير بالمعنى الحرفي والمجازي للعبارة، بارت الكائن الهش الذي يكتب موت أمه بتلقائية عنيفة وينتظر في الآن نفسه موته من داخل الفكرة القائلة بأن الموت "يتخلل الحياة في كل الأوقات ولا ينبغي لنا أن ننظر إليه بحسبانه كارثة داهمة"[23] ومن ثم ينتقل من حديثه عن الميت السابق(أمه) إلى حديثه عن الميت اللاّحق أو المحتمل بهدوء "لأول مرة منذ يومين،تقبلت فكرة موتي أنا شخصيا"[24] وسيدون كل يوم عن أمه معتبرا الحداد واجبا عاطفيا مقدسا والاستذكار اليومي للتفاصيل استمرارا للبرّ بأم تحولت في أيام مرضها الطويل ابنةً لابنها الذي لم يعرف معنى الأبوة إلا من خلال رعايته لأمه " لمدة شهور كنت أمَّها فكأني فقدت ابنتي"[25] وسيَحُول ما يمكن نعته بالحداد المقدس دون إمكانية ممارسة الحياة الطبيعية: سيتمزق بارت ألما كلما نسي أمه حتى لو كان النسيان للحظات معدودة " هناك أوقات أكون فيها "ساهيا" (أتكلم و عند الحاجة أمزح)- كما لو كنت بلا إحساس- ويتبع هذه الأوقات فجأة انفعالات فظيعة إلى درجة البكاء"[26] تأخذ لعنة "السهو" التي تمهد عادة للخروج من الحداد وبداية العودة إلى الحياة طابع المعصية عند بارت ، إنها خطيئة في حق الأم يتلوها-طبيعيا- الشعور بالذنب ومن تم البكاء الفظيع ، وكأنه يتوجب على الولد الذي مازال حيا أن يزهد في الحياة ويعاديَ المرح حبا بأم لم تعد حيّةً وإكراما لحداد لا ينبغي أن يُشوّه، بل إن بارت يذهب إلى أبعد من ذلك "هل تعني إمكانية العيش بدون شخص كنا نحبه، أننا كنا نحبه أقل مما نعتقد؟"[27] كأنه كان يتوجب على "الطفل" أن يموت بدوره حبا بأمه ليؤكد أنه أحبها كما ينبغي. "وللموت حبا في تاريخنا العربي القديم قصص لا تعد ولا تحصى حتى صار بطاقة هوية تعرف بها بعض القبائل نفسها "[28] ويختلف منبّه الموت كما نعرف: العربي يموت حبا بامرأة عشقها، وبارت لا يريد أن يُقصّر في حب أمه "بإمكانية" الحياة، فتصير الرغبة في الموت طموحا في التوحد مع الأم، وسيحب الموت منذ موت أمه فصاعدا، فبموته سيكون في عالم أمه وقد "وصل إلى اللامبالاة بالدنيوية"[29] وفي حب الموت يفقد طبيعيا حب الحياة وأهلها لكن هذا الفقدان يصير في بعض الأحيان مبعث قلق آخر، فبما أن الإنسان ما يزال

---

[22]-نفسه، ص14

[23]- جاك شورون،الموت في الفكر الغربي،ترجمة كامل يوسف حسين،مراجعة إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،1984 ،ص239

[24]--رولان بارت، يوميات الحداد،ص13

[25]--نفسه، ص23

[26]--نفسه، ص16

[27]-رولان بارت، يوميات الحداد، ص26

[28]- ينظر فتيحة كحلوش، الموت حبا قراءة تفكيكية في خطاب الحب في الأدب العربي القديم مجنون ليلى أنموذجا، ضمن(ثقافة الحب و الكراهية مؤتمر فيلادلفيا الدولي الثالث عشر أكتوبر 2008 ،بحوث محكمة)، منشورات فيلادلفيا 2010، عمان، الأردن.

[29]- رولان بارت، يوميات الحداد، ص34

على قيد الحياة ينبغي أن يظل على قيد الحب للأحياء وإلا سيفقد توازن علاقاته وهذا ما يقلق بارت فيعود لتأمل بشاعة الحداد بمنطق "ضرورة" استمرارية الحياة "الوجه البشع للحداد: المرارة، جفاف القلب: سرعة الاستثارة وعدم القدرة على الحب.أنا قلق لأني لا أعرف كيف أعيد السخاء أو الحب إلى حياتي. كيف أحب؟"[30] كأنما موت الأم أضرم نيران حبها من جديد فحرقت تلك النيران كل المحيطين ببارت. يجب أن نتذكر في هذا السياق أن الأم بالنسبة لبارت لم تكن شغفه الوحيد وإذ نتذكر نتساءل:كيف كان سيكون الحداد لو أنها مثلت كل شيء؟ ففي غمرة انهياره يصرح "فكرة مذهلة، ولكنها ليست محزنة، أنها "لم تكن كل شيء بالنسبة لي" وإلا ما كنت كتبت مؤلفاتي. منذ أخذت أرعاها منذ ستة أشهر، كانت بالفعل كل شيء بالنسبة لي، ونسيت تماما أني كنت أكتب، لم أعد مهتما بشغف إلا بها"[31] لقد اعتزل بارت الكتابة –وهي شغله الوحيد- خلال مرض أمه، واستبدل الصفحات البيضاء التي كان يتفانى في تسويدها بما يضج به ذهنه من قضايا فكرية وفلسفية بصفحة/جسد أمه، حيث سيتفانى أيضا في العناية بها حتى يبدو وكأنه لا يعرف المرأة إطلاقا إلا من خلال أمه "-ألم تتعرف على جسد المرأة ؟! –لقد تعرفت على جسد أمي المريضة ثم المشرفة على الموت."[32] وهكذا يعيش بارت لمرتين لعبة الاستبدال ليتجاوز لعنة الفقد: إن جسد الأم المريض يلغي جسد الكتابة (وهو الذي عدّ النص جسدا عبر كتابه "لذة النص" واستغرق في تعيين مواطن لذته)، وفي ضياع الأم يعود ويحتمي من يتمه بكتابة يومية عنها كما لو أنه يطمئنها من وراء حروف الأبجدية: لستِ وحيدة، إنني أتسلل من الحياة لأقاسمك الموت حتى تعتادي وحشة القبر، أو كما لو أنه يخاف هو نفسه من مواجهة الحياة من غير حضورها فيتلذذ بالعيش على إيقاعها، أو كما لو أنه طفل يعاني "متلازمة التعلق"ويحقق " إحساسه بالأمان الأكبر لدى قربه من المؤثر الدافئ... فعندما تحتويه ذراع أمه المحبة ، أو يستمع إلى نبرات صوتها المحبة ، فإنه يسعد ويشعر بالأمان ، وعندما تهجره أمه أو تخفي عنه عاطفة الحب يجعله هذا وحيدا ويشعر بالتعاسة "[33] وما حصل لبارت أن أمه هجرته في رحلة أبدية لا رجعة منها فانخرط في البكاء عنها كتابة كملاذ أخير يؤمن له حضورا مجازيا يحميه من عدوانية المكان واللحظات. فبدا هاربا من كل شيء، مهووسا بما ترك الموت غير معني بما بقي من الحياة "لقد حولتُ "العمل" بالمعنى التحليلي (عمل الحداد، والحلم) إلى "عمل" حقيقي وهو الكتابة. لأن "العمل" الذي عن طريقه(كما يقال) نخرج من الأزمات الكبيرة (حب، حداد) لا يجب إنهاؤه بتعجل، بالنسبة لي لا يمكن إنجازه إلا في الكتابة وبالكتابة"[34] يغدو التوحد مع الحروف مشروعا وحيدا في أفق بارت الجديد ينتصر به على صراع الموت والحياة بداخله فيتهادنان ويعبران بعضهما البعض محققان انسجاما نصيا وتناغما وجوديا حيث لا يعكر بارت "صفو الحياة بخشيته من الموت ولا يعكر الموت بانشغاله

[30]–المصدر السابق، ص62

[31]--نفسه، ص14

[32]--نفسه، ص11

[33]- معاوية أبو غزال، نظريات التطور الإنساني و تطبيقاتها التربوية، دار المسيرة للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ط2، 2007، ص58

[34]- رولان بارت، يوميات الحداد، ص45 .

بالحياة"[35] على طريقة مونتاني وباقي الفلاسفة الذين اشتغلوا على تحرير الإنسان من العبودية التي رافقت فكرة الموت عبر التاريخ البشري.

6. الرحلة في المكان ليست خلاصا:

لن تتوقف تدوينات الحداد عند محاولة التآلف مع الموت عبر الاستعادة المجازية للأم الراحلة بل ستلتبس بقضية المكان، وسيكثف بارت من تقرير عذابات الفقد في نفسية قارئه عبر سرد مواجهته مع الأمكنة. إذ أن عودة الذي بقي حيا إلى الفضاء المشترك مع العزيز الذي رحل ليست أقل إيلاما من حدث الموت نفسه. يتساوى الميت والحي في المغامرة المأساوية مع المكان، كلاهما يواجه متاهة: الأول تحت التراب والثاني فوقه. وإذا كان الناس يعرفون قليلا عن لقاء الميت بمكانه الجديد وهي معرفة عامة أطّرتها الثقافة الدينية وتخص جميع الأموات، فلقاء الحي مجددا بالمكان الخالي من الفقيد العزيز هو لقاء عنيف لم تضمده الثقافة. إن ذلك اللقاء ينطوي على مفارقة: إنه من جهة يجدّد حدث الموت ويؤكد الفقد التام والهشاشة الإنسانية أمام الغياب، ومن جهة أخرى يجذب الحي إليه بوصفه شاهدا على حضور الميت وعبوره منه. تذهب رجاء بن سلامة إلى أن الحي"يقوم بعد موت الميت ودفنه بعملية تحطيم وتأليف ذهنيين تجعله يسلم شيئا فشيئا بأن الميت لم يعد شخصا وكائنا حيا ويقتنع تدريجيا بأن الميت أصبح قبرا وأن علاقته به هي علاقة بهذا القبر "[36] وأعتقد أن هذا التأليف الذهني لا يتأسس مباشرة بعد الدفن وأن الاستبدال المكاني لا يتحقق بسهولة في ذهن الحي، يحتاج هذا الأخير في الواقع إلى وقت طويل كي يبني علاقة ارتباط مع القبر وهذا ما يؤكده مؤلف يوميات الحداد "بالنسبة لي، الضريح ليس هو الباقي، الخالد (إن عقيدتي العميقة جدا أن كل شيء ينقضي :إن المقابر تموت أيضا)"[37] هذا من جهة ومن جهة أخرى فبارت لم يمتلك علاقة تواصل فعلي مع قبر أمه بل إن الغرفة التي ماتت بها تحظى بعناية أكبر من القبر، وربما يعود ذلك إلى الرغبة الباطنية في عدم التسليم بأنها "ماتت تماما" أو إلى أنها تركت بعضًا منها منثورا في تلك الغرفة بينما لا يعرف بارت شيئا عن مكانها الجديد "لا أستطيع بشكل رمزي أن أمنع نفسي من الذهاب في كل مرة أكون فيها في أورت، عند الوصول والرحيل لزيارة قبر ماما، ولكن عند وقوفي أمامه لم أكن أعرف ماذا أفعل. أصلي ؟ماذا يعني هذا؟ مامضمونه؟ ببساطة التصور الزائغ لوضع الحميمية. لذلك كنت أرحل على الفور. بالإضافة إلى أن المقابر في هذه الجبانة الأقرب رغم أنها ريفية ، شديدة القبح.. "[38] إن الحي الذي فقد عزيزا يعود إلى منزل الميت كما لو أنه يبحث عنه أو يأمل يائسا بالعثور عليه مرة أخرى ومع إدراكه بأنه لم يعد موجودا "هنا" تتأسس علاقة جديدة مع مكان الفقد، علاقة تشوبها بعض القداسة بل إن

---

[35]--جاك شورون، الموت في الفكر الغربي، ص117

[36]- رجاء بن سلامة، الموت وطقوسه، ص223.

[37]- رولان ، يوميات الحداد، ص46

[38]– المصدر السابق، ص84-85

المخيال الجمعي تواطأ على نقل المكان من حيز الرؤية إلى حيز الشم، لهذا يرفض وارث المكان عادة بيع مكان فقيده مرددا جملة "رائحة أبي أو أمي..." وهذا لا ينفي طبعا قساوة اللقاء مع مكان الفقيد، وخاصة اللقاء الأول بعد أن افترق الجميع وبقي الموت وحده منتصبا هناك. يصف بارت تلك اللحظة بقوله:" الاثنين الساعة الثالثة بعد الظهر –لأول مرة أدخل الشقة وحيدا. كيف سيمكنني العيش هنا وحيدا تماما. وفي الوقت نفسه من البدهي أنه لا يوجد أي مكان بديل"[39] وحتى لو وجد المكان البديل ألا يدخله الموت؟ إن الموت " عابر للثقافات،عابر للطوائف،عابر للأديان"[40] وعابر للأمكنة أيضا، إننا في الواقع نحمل موتانا معنا إلى كل الأمكنة بما أنهم يرحلون عنا وتظل مقاعدهم في القلب مملوءة بهم، تنطق عنهم دوما.

وستستمر معاناة بارت مع المكان في كل مكان "بعد ظهر حزين ، جولة سريعة عند بائع الحلوى(نزوة عابرة) اشتريت قطعة قاتو صغيرة باللوز .أثناء تقديم الطلب لإحدى الزبائن، قالت الناذلة الشابة هاأنذا(voila) .كانت هذه هي الكلمة التي أقولها لماما عندما أحضر لها شيئا، عندما كنت أرعاها...هذه الكلمة التي قالتها الناذلة جعلت الدموع تطفر من عيني .بكيت طويلا (بعد وصولي إلى الشقة الخامدة التي لا صوت فيها)"[41] إن كلمة voila التي سمعها بارت في مكان عام ستفعل فعلها في قلب سارد يوميات الحداد وذاكرته وسترافقه إلى الشقة التي ما عادت مسرحا لهذه العبارة ، إنها "خامدة" تشي بالفراغ والموت ، ساكنة تماما والموت في لسان العرب هو "السكون، وكل ما سكن فقد مات، ويقال: مات الرجل، وهمد. وماتت النار موتًا، برد رمادها، وماتت الريح: ركدت وسكنت" [42] وأمام السكون لا يفعل بارت شيئا غير البكاء طويلا وقد اضمحل الصوت في فضائه وانسحبت من مكانه اللغة البسيطة الحميمة التي كانت تعطي حياة للمكان، لقد رحلت مع فقيدته. هكذا كلمة بسيطة تنتمي إلى القاموس المشترك مع الميت تعيده إلى المكان ثم سرعان ما تفجع الحي بوجوده يتيما إلا من التأريخ للموت والتحسر على الوجود وحيدا تماما" الوحدة-ألا يكون في البيت أحد يمكن أن أقول له:سأعود في ذاك الوقت أو من أستطيع محادثته هاتفيا (قائلا): هأنذا قد عدت إلى البيت"[43] إن هذا "الأحد" الذي يرغب بارت في محادثته هو أمه، وعبارته تنطوي على أمنية عميقة ومستحيلة: (ليتها كانت هنا لا يهم متعبة أو مريضة،فقط حية، لأخبرها بأنني عدت إليها أو سأعود عند الساعة كذا..) لكنها ليست هنا ولن تكون هنا ولن يُطمئنها طفلها مجددا بعودته. وستقود الغربة في البيت إلى غربة مطلقة" أشعر بالملل في كل مكان"[44] وسيتحايل السارد لتجاوز الملل بالسفر لكن عبثا" أمسية كئيبة في

---

[39]- نفسه، ص15

[40]-بول ريكور، حي حتى الموت، ترجمة وتقديم: عمارة الناصر، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2016،ص41

[41]- رولان بارت، يوميات الحداد، ص19

[42]-ابن منظور. لسان العرب. تحقيق عامر حيدر. بيروت، دار الكتب العلمية، المجلد السادس (أ- ل)، ط1، 2005، ص (817- 821)

[43]- رولان بارت ، يوميات الحداد، ص21

[44]- نفسه،ص25.

5/30/2025

قابس (هواء، غيوم سوداء، أكواخ على البحر في حالة يرثى لها، مشهد فولكلوري في بار فندق شمس): لم أعد أستطيع اللجوء إلى التفكير في أي مكان:لا في باريس، ولا في السفر. لم يعد لي ملجأ"[45]

لا يرى بارت في سفره الأمكنة في طوبوغرافيتها، بل يعايشها من داخل حالة الموت فلا يصل إلى التعايش معها. وبذلك تتحول الأماكن السياحية المدهشة في تونس إلى خراب جغرافي، لا يمنح الألفة ولا القدرة على التفكير/الكتابة. لعل بارت سافر ليستعيد ذات الكتابة التي يدثر بها معضلة الفقد لكن حتى الأمكنة البعيدة التي لم ترافقه أمه إليها لم تسعفه في ذلك وظهر يتيما مجددا لا "ملجأ" له. لقد ضاقت به الأرض بما رحبت وهذا لأن الذي يعيش الحداد لا يقيم في الخارج بل يقيم في الداخل، في أعماقه ومن تم يرى كل الأمكنة بغيوم سوداء ستمطر مزيدا من الحزن و الوحدة."آخر يوم في المغرب " الصباح. شمس ، عصفور ذو تغريد خاص أدبي أصوات الريف (محرك) وحدة سلام .ليست هناك أي عدوانية .غير أني، أكثر من أي وقت مضى، في هواء نقي ، أخذت أبكي وأنا أفكر في كلمة ماما التي تحرقني وتدمرني دائما: حبيبي ر! حبيبي ر! (لم أستطع أن أقول هذا لأي شخص)"[46] رغم حميمية المكان، الشمس، الهواء النقي في ريف المغرب، أصوات الطبيعة، الأصدقاء الكرماء إلا أن بارت يبكي وقد قفز إلى ذهنه صوت أمه تكلمه كطفل صغير. لقد تجوّل مع حداده عبر العالم وما يزيد في مأساته أنه لا يستطيع البوح بحداده فهو مجبر على عيش عالمين متوازيين في الآن نفسه ، عالم "العمل" الخارجي وعالم "الحداد" الباطني.فيكون في النهاية كمن يرفع القبعة مستسلما للإحباط "إحباط من عدة أماكن ورحلات. لست بخير في أي مكان. بمنتهى السرعة، هذه الصرخة: أريد أن أرجع ! (لكن إلى أين؟ مادامت غير موجودة في أي مكان، و الذي كان هناك حيث يمكنني العودة) أبحث عن مكاني"[47] لقد كرر بارت محاولات السفر هربا من المكان(من الحداد) لكنه في كل مرة يجد نفسه في تربة أخرى توجعه أكثر ويرغب بالعودة على الأقل إلى أرض موتها، "لماذا لم أعد أحتمل السفر؟ لماذا أريد طوال الوقت كما لو كنت صبيا تائها –"أن أعود إلى البيت"-حيث لم تعد ماما موجودة على أي حال"[48] لم يعد بارت يحتمل السفر لأنه يبعده عن البيت "والبيت في أحلام يقظته ينغلق على وطن الطفولة الثابت، فيتمتع فيه بالسعادة ويستريح من جديد بمعايشته ذكريات الحماية"[49] الحماية التي ماهي في الواقع إلا الدفء الباقي من أمه رغم أنها لم تعد موجودة. لقد أقام في الغرفة التي ماتت بها، وراح كل يوم يجدد وضع الورود في مكان موتها مهدئا من روع الموت وواصلا لرابطة حياة استثنائية جمعتهما ولا ينبغي أن تذبل "وصلت إلى درجة أني لم أعد أرغب في السفر حتى أتمكن من البقاء هنا، كي لا تذبل

[45]– المصدر السابق، ص25.

[46]- رولان بارت، يوميات الحداد، ص58-59.

[47]- نفسه، ص62.

[48]- نفسه، ص67.

[49]-Gaston Bachelard, La poétique de l'espace, presses universitaires de France, Paris, France, 1971, pp24-25.

الزهور أبدا"[50] لقد صنع بارت قبرا مجازيا لأمه بغرفتها وارتبط به متعهدا بالحرص على بقاء الزهور شذية كشاهد على الحياة يستدعي حضور روح الأم هنا فتملكه النفور من جميع أمكنة الدنيا التي تشعره بالتيه والزوغان وصار مسكونا فقط بحلم البيت حيث عاشت أمه، حيث ماتت وحيث مارس بَعْثها رمزيا. وبارت بهذا كأنما أيضا يعاند الموت والحياة في الوقت نفسه، يعاند الموت باستحضار أمه واستمراره في العيش معها على ذلك النحو، و يعاند الحياة بخيانتها والترفع عن كل إغراءاتها.

7. الأيام تكرر استظهار الفقيد غير آبهة بالفاقد:

إذا انتقلنا من قراءة الموت عند بارت في ظل مكانية حدث الموت وفضاء الإقامة المشترك بين التي ماتت والذي بقي يعيش الموت كتابة، إلى قراءته في ظل زمانية الموت والميت وكاتب الموت أيضا، سنجد أن بارت على المستوى الخطي الأفقي مقيم في زمنه، في زمن الحداد فهو يخط "يومياته" مع حالة الفقد "يصاحبه ويلتصق به حضور الغياب"[51] لكن تلك الإقامة هي مؤقتٌ مشتّتٌ يتوق إلى ما قبل الموت وما بعده. ذلك أن العلاقة مع الزمن شبيهة بالعلاقة مع المكان لا تقوم على النمطية ولا تستجيب لحس الحياد. إن الإنسان يسقط على الزمن مشاعره وعوالمه "فالزمن ليس سوى صورة للحس الداخلي"[52]

بالإضافة إلى تثبيت التاريخ في كل مرة يدون فيها بارت يومياته، سيردد العبارات الدالة على الزمن من مثل "في تلك الليلة"، "في ذلك اليوم"...أو يحدد أحيانا الزمن تحديدا دقيقا "نحو السادسة"، "في الصبيحة"...إلخ. ويعبر الحياة من خلال هذه التحديدات إلى الموت فيشرح علاقته بالزمن من داخل حداده "صمت صباح الأحد وحيدا، أول صباح أحد بدونها. أشعر بدورة أيام الأسبوع. أواجه سلسلة الأوقات الطويلة من غيرها"[53] ما إن يموت الميت حتى يؤسس له فاقده مشروعية على سلّم التاريخ. تبدأ الذات في التأريخ للحياة انطلاقا من تاريخ موت ذلك العزيز، ولعل طقوس اليوم الثالث، السابع، الأربعينية، الذكرى السنوية...إلخ هي الدّال الذي يجسد التقويم الزمني الجديد . يُقيّد بارت انطباعه عن أول عطلة نهاية أسبوع يعيشها دون أمه و ما يتبع ذلك من تشابه أيام الأسبوع كلها، التشابه الذي يمطط الزمن و يجعله رتيبا كليل شتوي طويل، والراوي في علاقة مواجهة(صراع) مع سلسلة لا تنتهي من الأوقات العبوسة القمطريرة. لقد صار يشبه أولئك المصابين بما يسمى في علم النفس "المرض بحس الزمن" حيث العلاقة مع الوقت فاترة وإيقاع الحياة ميت[54] الوقت إذن طويل بالنسبة لبارت منذ أول أحد لم تكن أمه ترافقه فيه. إلى ماذا يهدف؟ الوقت طويل بالنسبة إلى أية نهاية يريد بلوغها

---

[50]- رولان بارت، يوميات الحداد، ص68.

[51]- رولان بارت، يوميات الحداد، ص26 .

[52]- حسام الدين الألوسي، الزمن في الفكر الديني والفلسفي القديم ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان،1980، ص52 .

[53]- رولان بارت ،يوميات الحداد، ص19

[54]- ينظر جان بوسيل، الزمان، ترجمة محمد نديم خشفة، مركز الإنماء الحضاري، القاهرة، مصر،ط1، 2005، ص22.

وبالنسبة إلى أي حدث؟ حدث "العودة" إلى الحياة أم حدث "المغادرة"منها، مغادرته هو أيضا لهذه الحياة التي ينعتها "بالسخف" مادامت مستمرة بعد رحيل أمه؟ وكأنه كان يجب أن تتوقف عند ذلك الحد " حفلات كوكتيل مايو. إحساس حزين ومحبط من السلوك الاجتماعي والموسمي المتكرر الذي ليس به تميز .مؤلم. أفكر: ماما ليست هنا والحياة السخيفة مستمرة"[55] يظهر بارت إذن مستاء من حياة تستمر في الاحتفال غير آبهة بما فقده، والاستياء هنا شعور طبيعي لأنه يتضمن مطلب "التضامن". ما من أحد يعاني تجربة الفقد إلا ويكون مطلبه (غير المعلن عادة) أن يخفف الآخرون من أفراحهم رفقا بأحزانه هو. وإذا كانت ذات الفقد تنشد هذا المطلب من المقربين غالبا، فبارت الفيلسوف -و قد غدا طفلا حزينا جدا و"متطلبا"جدا- ينشده من كل الحياة إذا أرادت أن تُبقي على وقارها الإنساني، إنها أنانية الحزن وفلسفة الحزين. ولأن الأيام لا تبالي بالفاقد -وبارت يعرف هذا- فإنه سينسحب إلى وحدته التي ستكون عنوانه الأخير "في هذا اليوم، نحو الخامسة مساء، كان كل شيء قد تم ترتيبه تقريبا، الوحدة النهائية سادت هنا، مكتومة، ولن يكون لها من الآن فصاعدا نهاية، سوى موتي أنا شخصيا"[56] يُقر بارت أنه دخل زمن الوحدة الأبدية موقنا أنها لا تملك نهاية إلا بموت آخر:موته هو. وفضاء الوحدة هذا ليس مأساويا على كل حال، إنه جسر يربط بينه وبين أمه ولا يجب أن تعكر صفوه وشوشات الحياة، الوحدة تصير بدورها مطلبا مُلحا، فهناك في الصمت والعزلة فقط يتمكن بارت من التوحد مع أمه صورة وحلما وكلمات/ ذكريات. في الصمت والعزلة يحتفي بزمن الخسارات الأبدية، مقدسا حزنه، مؤسسا لشعرية الموت " وهذا الصباح هو عيد ميلادها. كنت أهديها دائما وردة .اشتريت اثنتين من السوق الصغير في مرسى السلطان ووضعتهما على منضدتي"[57] كان الولد الوديع مسافرا بالمغرب يتغيا عملا ونسيانا لطيفا للزمن ، لكن تاريخ ميلاد أمه حضر بقوة، ومع أن السفر عادة يلغي-مؤقتا- بعض الذاكرة ويُنوّم بعض الذكريات إلا أن بارت يتذكر عيد ميلاد أمه ولا يُفوّت الاحتفال به على طريقته، ونظرا لوجوده بعيدا عن قبرها يصنع لها كالعادة قبرا داخل غرفته فيضع الزهور فوق منضدته التي عوّضت قبرها وغرفتها في وطنها، ما كان بارت جبّارا شقيا! بل بارّا مطيعا يحمل أمه وقبر أمه على كتفيه ويسافر عبر الدنيا، وحيثما حلّ ينثر لروحها الورود ويواصل تمثيل تاريخها توحدا بعالمها واحتفالا بكل ما يخصها. إن ما يُرعب بارت ليس ذكرى ميلاد أمه، بل ذكرى وفاتها، ومع أن الذكرى الأولى لم تعد لها قيمة في الواقع بما أن الميلاد والحياة اكتملا بالموت إلا أن علاقته بالتاريخين مختلفة "اليوم تقترب، ذكرى موت ماما، أخاف أكثر فأكثر، كما لو كان يجب أن تموت مرة ثانية في هذا اليوم 25 أكتوبر"[58] كأن ذكرى الميلاد تلغي حدث الموت ، بينما ذكرى الموت لا تملك استعارة أخرى في معجم مجازات بارت، ذكرى الموت تكرر الموت بل خوف ما قبل الموت: عصاب الفقد. إن ذكرى تاريخ الميلاد تنطوي على سردية كاملة على المستوى التخيلي: سيرة حياة، حيث يسترسل

[55]- رولان بارت، يوميات الحداد، ص44.

[56]- نفسه، ص18

[57]– المصدر السابق، 57.

[58]– المصدر السابق، ص73

المتذكر في تداعيات ما بعد الميلاد، الطفولة، المراهقة، الشباب... بينما ذكرى تاريخ الموت تمثل نهاية السرد وتعيد الراوي إلى لحظة الموت الأولى ولهذا يخاف بارت كثيرا كما لو أنه صدّق بامتلاكها ويخاف فقدانها من جديد.

وعلى العموم فزمن ال"هنا" في "يوميات الحداد"مرتبط ارتباطا وثيقا بزمن ال"هناك"، كل حدث تواجهه ذات الفقد في حاضرها يتجه رأسا إلى ما يشبهه أو يناقضه من أحداث جمعت هذه الذات بفقيدها. "هذا الصباح مزيد من الجليد وفي الراديو أغاني شعبية ألمانية. يا للحزن !أفكر في صباح الأيام عندما كانت مريضة ، عندما كنت لا أذهب إلى المحاضرات و أسعد ببقائي معها "[59]

يرتبك تسلسل التاريخ كما نرى مربكا أوجاع "الولد"، جليد الصباح على الطريق وهو ذاهب إلى العمل يذكره بصباحات الدفء مع أمه حيث كانت مريضة ويتغيب عن الجامعة ليرعاها، وبقدر ما يستيقظ فيه الحزن بقدر ما تنتعش روحه وهو يطلق العنان لخياله ليستغرق في "حميمية المنزل" التي أسس لشعريتها غاستون باشلار، سيظل الداخل جميلا مطمئنا رغم أنه صار خاليا من ذاك الجميل المطمئن، وسيظل الخارج عدوانيا لأنه يمثل تجربة الانفصال القاسية. سيظل الزمن الماضي حياة تتمركز حولها الذات وتدور في فلكها بحركة استرجاعية مستمرة ،أما الحاضر والمستقبل فيظلان ممتلئين بالفراغ، وما يعطيهما بعض المعنى هو فقط التموقع في كتابة الفقد. لقد راح بارت يتعاطى تيمة الموت كضامن "للقدرة" على الحياة، فانتقل من "النظر إلى الموت من على قمة الحياة إلى النظر إلى الحياة من عمق الموت عبر وسيط فعل الحداد"[60] لقد نجم عن هذا القلب في زاوية النظر للموضوعات والأشياء قلب في المفاهيم نفسها، وقد رأينا سابقا كيف أسس بارت لتصورات جديدة مع الموت، مع الزمن، مع المكان ، بل مع العلم نفسه.

إن أيام "ما بعد" الموت تحمل السكون في طياتها إذ يفقد المرء في غمرة حزنه على فقيده الرغبة بفعل أي شيء ويكبر لديه الإحساس باللاجدوى من "كل" عمل، أما بارت فقد ملأ سكونها بعمل "نبيل" : الكتابة عن الموت للخلاص من قهر زمن الموت. وهكذا أخذت العلاقة مع زمن الموت وجه التحدي بالكتابة و هو تحد ناعم يقود إلى مصالحة أبدية يكون فيها الموت الأليم جسرا للاكتمال والخلود السعيد.

إن ما يمكن أن نخلص إليه في نهاية هذه القراءة لتيمة الموت عند رولان بارت هو اختلاف أسلوب عيش الموت كتابة عنده باختلاف سياق الكتابة نفسه، ففي الغرفة المضيئة احتفظ بارت بنفس الفيلسوف وهو يحاول استعادة أمه عبر صورها ، فقد ظل الموضوع (سيميائية الصورة الفوتوغرافية) قائما، وظل التأمل العقلاني له حاضرا بعض الشيء، بينما استسلم بارت في يوميات الحداد للسهو وللهذيان غير المقننين استغراقا في ذات الغياب وذات الفقد على حد سواء. لقد تجاوز الموت أن يكون "حدثا" يمكن للكتابة لملمة أطرافه وصار مستعصيا على "أي جدلية سردية"، وكل ما يمكن فعله

[59]- نفسه، ص33.

[60]- بول ريكور، حي حتى الموت، ص12 .

هو الإقامة فقط في ذاكرته كي لا يضيع الميت العزيز ضياعا تاما، وذلك يقتضي مصالحة خفية متواطئة مع الموت. لقد صار بارت يعرفه ويخشاه بدرجة أقل إذ لا موت مخيف سوى موت أمه" الموت هو ما فعلته ماما"[61] لقد حوّل بارت نفسه إلى شخصية روائية همها الوحيد كتابة مؤلف عن الأم يلغي كل مؤلفات بارت ويتجاوزها في الخلود فهو "مريض نفسيا ، يخاف كارثة وقعت من قبل"[62] وسيشفى من خوفه "بالتصفية المستمرة لما يمنعه ، و يبعده عن كتابة مؤلف عن أمه"[63] لقد كان بارت "يرجو"من الحياة رجاء خفيا أن يكلل سيرته العلمية بهذا الإنجاز كي تسقط آخر هواجس الموت موت أمه وموته هو ،ذلك أن أحد أسباب التوتر في العلاقة مع موضوع الموت هو أننا لم نف بوعودنا تجاه بعض رغباتنا "وتبعا لذلك فإننا لو استطعنا أن نحقق ذواتنا، لما ترددنا في أن نقبل الموت عن طيب خاطر، لكي نلحق بأمواتنا الأعزاء"[64]

وإذا كان بارت يشعر أنه من المتعذر عليه استعادة أمه "كاملة" عبر الصورة أو عبر الحلم أو حتى عبر الكتابة فيغرق باستمرار في البكاء بما هو لغة أخرى، فالقارئ على خلاف ذلك يجد نفسه في النهاية قد تعرف إلى هذه الأم "تماما" وأن البطاقات المدونة قد تحولت نصا/كتابا تنطوي قراءته على كثير من التأويل. إن كينونة الأم تبدأ في التخلق بشكل موضوعي (أي كتيمة) شيئا فشيئا، وما إن نتقدم في القراءة حتى تبدأ الكينونة اللغوية في اكتساب الروح وتتحول التيمة إلى سيرة حياة تستلزم التعاطف ليس كرما إنسانيا فقط ولكن مشاركة حالة. نعبر تفاصيل الصورة/الجسد من خلال علاقة بارت بزمن ما قبل الموت وما بعده ومن خلال علاقته بالمكان القبلي والبعدي أيضا ومن خلال ذلك العبور تُبعث الفقيدة حية في الفضاء الذاتي للقارئ.

ندرك هنا أهمية الكتابة مقارنة مع الصورة. لو مرت بنا صورة أم بارت في جريدة أو كتاب ما كنا سنقف عندها أكثر من ثوان فهي "مجرد" أمّ الناقد، لكن وقد صارت نصا مكتوبا بقلم ابنها بعد موتها فذلك منحها كينونة على غير مثال. الصورة تتسم بالحياد (إلا بالنسبة لمن يملك تاريخا معها) أما الكتابة فتسحب المتلقي من موقف اللّامبالي وترمي به في فائض التأثير الذي تنطوي عليه. ولهذا حققت كتابة الموت نوعا من المصالحة معه ، ليس فقط بالنسبة لبارت الذي حررته من "عصاب" الفقد ولكن بالنسبة للقارئ أيضا الذي سيعيد ترتيب آلامه المنجرّة عن حدث الموت والفقد. يقول بارت: "عندما كانت ماما على قيد الحياة (بما يعني كل حياتي السابقة)، كنت أعاني عصابا من فقدها .الآن (وهذا ما تعلمته من الحداد)، هذا الحداد كما يمكن أن يقال، الشيء الوحيد غير العصابي : كما لو كانت ماما قد قدمت لي آخر هبة ، بأن أبعدت عني أسوأ جزء: العصاب"[65] ولعل الشاعر العربي القديم أوس بن حجر ببيته الشهير (أيتها النفس أجملي جزعا

[61]- رولان بارت، يوميات الحداد، ص71.

[62]– المصدر السابق، ص72

[63]- نفسه، الصفحة نفسها.

[64]- أمل مبروك، فلسفة الموت، ص103.

[65]- رولان بارت، يوميات الحداد، ص44

إن الذي تحذرين قد وقع) قد لامس هذه الحقيقة مبكرا، إن ألم انتظار الفاجعة أكبر من الفاجعة نفسها. لقد تحرر بارت بموت أمه من رُهاب الفقد، لكنه أبقى على قيد البر بوالدته مجسدا ذلك البر بالكتابة عنها حتى موته. لقد شفي بطريقة ما من الموت ، وكانت يوميات الحداد عمل حب خالص "إن حدادي هو حداد علاقة المحبة"[66] وكل محبة تنطوي على سعادة عظيمة حتى لو كان المحبوب مفقودا وإلى الأبد.

8. الخلاصة :

في نهاية هذه القراءة، يتضح أن بلاغة الفقد عند رولان بارت تتجاوز مجرد التعبير عن الحزن لتصبح مشروعًا وجوديًا وإبداعيًا، لقد حوّل الفيلسوف، الذي قضى حياته يفكك العلامات والأنظمة، عدساته التحليلية نحو ذاته، ليقدم لنا نصًا فريدًا يمتزج فيه التأمل الفلسفي بالهذيان العاطفي، في "الغرفة المضيئة"، حاول القبض على جوهر أمه عبر الصورة، لكنه لم يجد إلا "وهم الامتلاك" وغياب الروح، مما كثف من ألمه. أما في "يوميات الحداد"، فقد استسلم تمامًا للطفل الوديع الذي بداخله، فكتب نصًا "لا أجناسيًا" هو في جوهره عمل حب خالص.

إن ما قام به بارت هو أكثر من مجرد حداد؛ إنه عملية "استئناس" للموت. فبعد أن كان الموت فكرة مجردة أو عصابًا من الفقد، أصبح بموت أمه تجربة شخصية، واقعًا يمكن العيش فيه ومعه من خلال الكتابة، لم يخلد ذكرى أمه فحسب، بل أعاد تعريف علاقته بالحياة والزمن والمكان، لقد أقام في "فضاء الموت" ليصنع حياة جديدة من رماد الفقد، متصالحًا مع فكرة الغياب الأبدي.

في النهاية، ربما تكون "آخر هبة" قدمتها الأم لابنها، كما يقول، هي تحريره من "عصاب" الفقد، ليبقى فقط الحزن النقي، وهذا الحزن النقي هو الذي مكنه من كتابة أجمل نصوصه وأكثرها صدقًا، نص لم يكن يهدف إلى تحليل العالم، بل إلى البكاء عليه. لقد كشفت لنا كتابة الموت عن وجه آخر للفيلسوف: وجه الإنسان الهش، الطفل الذي رغم كل معارفه يقف عاريًا أمام الفقد، وسلاحه الوحيد هو الكلمات التي يحاول بها ترميم ما حطمه الغياب، وبهذا، لم يكتب بارت عن أمه فقط، بل كتب عن كل أم وكل فقد، مانحًا القارئ عزاءً مشتركًا في مواجهة الحقيقة الإنسانية الأكثر قسوة.

[66]--نفسه، ص20